

الدهليز الملكشوي

للاستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

صنع وتد لحيوان أو شيئا من هذا القبيل فهو لا يصنع خوانا ولا صوانا ولا أنائا مما خلقته الحضارة . ثم أعفاه الزمان من هذه الحرفة التي بلغ حد تقمته عليها أنه أقسم ألا يعلم ابنه إياها ! لكن طريقة الإعفاء كانت كريهة فلقد كف بصره فجأة حين نجم في عينيه ما يسمونه « ماء » ... علة تستل نور الأبصار برفق خبيث ثم تدع المقلة وكأها سليمة فتتدع فيها العيون السليمة

وأصبحت أسرة النجار منذ ذلك الحين موضع رعاية أهل البر لأن الرجل لم يكن ذا ولد يمكن أن يعمل ، ولأنه باع أدوات النجارة بثمن بخس زكاه في نفسه أنه لم يعد محتاجا إلى قدوم ولا منشار . وأسند إليه أهل القرية عملا يتناسب مع ما أهدها إليه القضاء . يتناسب معه تماما ويكاد يكون « مؤهلا » مشروطا لمن يقوم بمثل هذه الوظيفة فلقد عينوه « ملا » يدبر مضخة كاسية ترفع الماء إلى صهريج المسجد لكن حسن النجار ما كان يرى وحده في طريق ...

أخذت روائح الرضا تهب على أسرة النجار مرة أخرى بعد أن مسح الزمان على الوالد بيد على أطرافها مرهم قليل . وبدأ عقدهم يلتئم كل مساء في دهليز دارهم المكشوف الذي يقع تحت ناظري مباشرة كلما أطلت من نافذتي نحو الجنوب كنت أراهم في ليالي الصيف مفترشين الحصى تنصب عليهم أشعة القمر فتغنيهم عن المصباح أو تلمع في كانواهم جرات الخشب فتلتقي عليهم نورا أحمر إن لم يكن هناك قمر . يتبادلون الحديث الساذج المطبوع بطابع الرضا والسالة والإيمان بالقضاء والقدر ، تلك المعاني التي تمشي في الريف جنباً إلى جنب مع دقيق الذرة ومع الجبن والرايب !! مسح الزمان على جراح الوالد فتمثل مصابه . تمثله وتشرته نفسه أيا كان طعمه لأنه من البلايا التي لا تنسى

كان نجارا في القرية يصنع ما يصنعه هنالك كل نجار . في أدواته خشونة أدوات أصحاب الحرف في الريف لأن عمله لا يعدو أن يكون إصلاح ترس أو تركيب يدقأس أو

به أفسى قلوب الناس . أما الجليل الشاذ في
ابن النجار ، فقد كان شعره :

لم يكن يذهب إلى الحلاق لأن أمه كانت
تقوم بهذه المهمة . كانت تجز رأسه بالقص
فترى ضربة هنا وضربة هناك ، وشطبا في
الشعر كأنها شطب السيف ، وفي أعلى الجمجمة
« شوشة » وفي أعلى الجبين « شوشة »
كذلك ... منظر شاذ قد لا تتصوره عينا
مدنى لكنه أحلى من الشهد وموقع في قلوب
الناس وبخاصة إذا ناست هذه الخصلات
مع عبات التسميم

كان أكبر أبناء أبيه على حداثة سنه ، كما
كان المحور الذي تدور حوله آمالهم وآلامهم
وبخاصة بعد أن فقد الأب نور عينيه ، وكان
اسمه إذا ما جن الليل وجلسوا في الدهليز
الكشوفى ينادى ألف مرة كأنما كان — كما
يقولون عنه — إداما لحبزه وسكرا شايعهم
وكمكهم في ليالى العيد ، ومسكنا لآلامهم
إذا ما ثارت في نفوسهم حوادث الماضي

وقد رأيته منذ أسبوع مضى وهو واقف
إلى جوار أبيه في ضحى يوم العيد . وكان
يجمع بيده الصغيرة اللاليم فيعطيهما للوالد ،
وأقراص الفطير وأطواق السمك فيضعها
في غرارة شدت إلى حامل الأرجوحة .
تلك الأشياء التي يقدمها الصبيان أحرار الركوب
أرجوحة السناديق التي يملكها التجار والتي

كان لا بد له من فترة حتى يألف حياته
الجديدة ... أعنى حياة الظلام الدائم . فكان
ابنه « ربيع » يسير إلى جواره يهديه سبيله
لأن الذين ينفقون النور في أبصارهم وهم كبار
يحتاجون إلى فسحة من الوقت لتمكن بقية
الحواس من أن تتحمل ما كانت تتحمله العين
قبل ذلك . لا بد من وقت للداخل في دنيا
الظلام على كبر حتى تتدرب أذنه على قياس
المسافات فيعرف عرض الطريق من أحاديث
المارة على جانبي الطريق ، وطول المدى
بينه وبين السكك النابح من صوت نباح
هذا السكك ، وارتفاع النخلة أو الشجرة
من همس الريح في ذوائب إحداها . ولا بد
للألف كذلك من مدة ليتدرب على معرفة
الأماكن والأوقات فيشم رائحة الربيع كما
يشم رائحة الشتاء ، ويميز رائحة الصبح كما يميز
رائحة المساء !! وهذه هي سنة التمويض
التي يجرى بها قانون الحياة !!

كان « ربيع » في السادسة من عمره ،
صبيحا مليحا ، يستأثر بقلبك منه وجه
مستدير أسمر تشغل عيناه منه مساحة كبيرة
كأنها لم تترك لبقية أعضاء الوجه مكانا فشغل
الفم والأنف مساحات صغيرة . وكنا لا نراه
إلا باسما تطرف أهدابه باستمرار إذا ما نظر
طرفات حادة ترأسها ابتسامة دائمة فيتألف
من ذلك كله معنى يستطيع ربيع أن يتوود

التحاريق وبعض ضفادع طال سمرها في البركة
القريبة . وانطفأ الكانون ونام الرضيع ثم
نادت الأم ابنها الأكبر لينهض فينال شيئاً
من لحم الدجاجة التي ذبحتها من أجله !!
ولكنه أحياها بأنين وتلمل وضجر ، ولم
يطل بينها النقاش لأن الأب نحس رأس
ولده وقال مخاطباً زوجته : دعيه مرتاحاً .
ثم رفع رأسه إلى السماء وقال مخاطباً ربه :
يا إلهي ... أنت جاهي !!

وساح ديك مع الفجر واتصل صياحه
بعويل امرأة حتى كأنه امتداد لهذا الصباح
فهمت مذعوراً وأطلت على دهليز حسن النجار
لأنني لم أكن نسييت أراضه مريض ، فرائت
على نور أول شمع من الفجر شبحي
الأبوين وهما يتزيان كما تتزى كرة المطاط
بين الأرض وبدا لللاعب ، لم يكن أحدهما يقول
شيئاً جديداً ولا غريباً عما تعودا أن يقولاه
بل كانا يتناديان على التوالي أو في نفس واحد ،
باسم الحسب ، كأنهما كايثوقمان أنه سيجيب !!
ثم درج الزمان في طريقه غير ملتفت
لشيء وأظلم المساء الأول بعد غياب الصغير
عن دار أبيه ، وانصرف بعض النسوة
وبعض رجال كانوا يمزون ، وخت الدار
بالزوجين وأظلمت من نافذتي كأننا لأسهر على
وحدتهم من بعيد فرائتها ينطويان على
نفسهما ويتكاور كل منهما في ركن ويستسلم

سنعها أبام كان مبصراً وطل خشبها بأوان
زاهية فيها سذاجة واضطراب لكنها
بسحران لب الصغار . وكان على « ربيع »
جلباب جديد أحمر ، وعلى فمه اتسامة جديدة
بيضاء ، وفي قدميه حذاء قديم أسود ، واسع
قليلاً ، فهو يثر به التراب إذا ما خطا على
الأرض .

هذا هو الدهليز المكشوف يقع تحت
ناظري وقد أطلت عليه من الشباك . وفي
السماء قوس هلال ضئيل لم يستطع نوره أن
يبين الأشباح في دار حسن النجار بوضوح
كامل . لكن الذي أثار فضولي وهيج
انتباهي أن سحابة هم كانت ترفرف على
المكان .

كان جوهم ثقيلًا تمشي في نواحيه وحشة
كثيرة . وهناك قدر على النار يستطع بخارها
مختلطاً بدخان الحطب « وقوالح » الذرة ،
والأم منحنية على وليد صغير يتص درها
ويصرخ بين فترة وفترة فتسد فمه بالقمامة
التي . أما الأب فكان منزويًا ساكنًا على
الحصير بين أيديهم رقد ابنهم ربيع .

وطالت جلستي في النافذة حتى هجعت
القريبة فلم يعد ينهي إلى مسمعي إلا أصوات
بعض العلاءين وهم يحأرون بالغناء على
صرير الطائير التي تروى الأرض في موسم

ولم يقو حسن النجار بعد ذلك على إدارة
المضخة بل الصهرج لأن قواه قد خارت من
أثر الصدمة . ولم يكن هناك من يهديه
السبيل بعد أن خرجت زوجته إلى العمل
في الحقول

وحرم أهل الحارة على أبنائهم أكل التين
الشوكى مدة طويلة . ولم بعداً أحدهم يسمح
لولده أن يتسلل من مرقده في الصباح الباكر
ليسبق غيره إلى جمع البلح من تحت أقدام
التخيل حتى لا يفضى به المسير إلى تلسم
الروة العالية التي تغطيها أشجار التين في
جهاة وجفارة فيلقى مصير ربيع بن حسن
النجار .

تسلل إلى هناك متسلحاً بقطعة من الصفيح
زاحفاً على بطنه كما تفعل القنافة حتى لا يراه
عين الخمير . وجعل يعمل السكين في الثمار
وياً كل حتى تصبب شمع الشمس من
خلال أنواح التين . ولم يكن الصبي يعلم أنه
ظلم نفسه وأنه أكل فوق ما يطيق وأنه ملأ
بطنه « زلطا » وحصا سيكون آخر ما تزود
من الدنيا . ثم ... ثم رأت الوحشة على
الدهليز المكشوف !!

قلت لطبيب المستشفى المركزي بعد أن
رأيت على وجهه دلائل الألم :

إن رأيت في مشكلة النجار قديم يرجع
عنده إلى تاريخ موت ابنه ؛ فقد كان الرجل

للنوم في سكون بأثس . لكن الحال لم تدم
على هذا المنوال فقد بدا الجزع واضحاً على
الأب في الأيام التالية ؛ أما الأم فقد كان حزنها
كشيئاً صامتاً كأنه حزن القابر . لكن حسن
النجار كان يقضى الليل في حركة وكلام
لا ينقطعان ، اللهم إلا فترات من السكون
خيل إلى أن الرجل كان يناقش فيه قضية
نفسه ثم يعلن نتيجة النقاش جملاً قصيرة
لعلها اعتاب تشو به الشكوى أو شكوى يمازجها
العتاب فيقول : يا إلهي ... ضاع عكاز
الأمي ... وبقي الأمي بلا عكاز !! ثم يقوم
فيقطع الدهليز في جيئه وذهاب ويدها ممدودتان
أمامه كأنهما ليتقي بهما شيئاً ، يفعل ذلك وهو
يردد : عكاز الأمي يا إلهي ... عكاز
الأمي يارب !!

كنت في نافذتي أتدبر القضية التي يتدبرها
حسن النجار في ضميره وأحاول أن أصدر
فيها حكماً ولكنني لا ألبث أن أتنحى عن
الموضوع لأنني لست جديراً بأن أحكم فيه .
لكن معنى واحداً سيطر على إحساسي حتى
استرقني وجعلني عبداً له ، وهو أن الموت
ضرورة لهذا الرجل . كنت أراه يجد السير
في طريق له شعبتان إحداهما جنون وإحداها
هلاك . فتمنيت أن تهديه قدماه اللتان تقودهما
الأفدال إلى الشمبة التي تفضي به إلى الموت
فإنها خير على كل حال

وفي ضلوعه وأحشائه إصابات عميقة . وقال
أهل القرية : إن يد أحد الصبيان العابثين
هى التى قادته نحو هذا المصير يوم قال له
الشقى : اتبعنى يا سيدى أهدك سبيلك .
فذكر الرجل ابنه فسأله عن اسمه ، فأجاب
العاث كاذباً : اسمى ربيع . فحن الأعمى
وتحسس رأسه فألقى على جبينه « شوشة »
فتبعه فى غمرة من التذكرى حتى قاد خطاه
إلى أعماق الهوة . وكان هناك صبيان آخرون
شهدوا المنظر لكنهم تفرقوا من الدعر فى كل
صوب كما تفرق العصافير عند فرقة الرصاصه
وقد حرصت — وأنا جاره — على أن
أتحرى صحة الرواية ، لكننى رجعت بفكر
مبيل وخاطر متشتت ، وخيل إلى أن كل
حادثة تقع مرتين على الأقل ، مرة فى عالم
الحقيقة ومرة أخرى فى خيال الناس
ولكن كل هذا لا يغنى بعد أن وصل
النجار إلى ما وصل إليه

ونمت عند رأسه بعض فاكهة حملها
على أمل أن يفريق فيطعم منها شيئاً لكنه كان
يمجد السير نحو النهاية المحتومة
رأبته آخر ما رأيته يمد يده إلى الأمام
على هيئة من يتحسس الطريق وهو يقول :
المكاز ... عكاز الأعمى ... !! فقدمت له
عصاى على الرغم من أننى فاهم كل ما يقصد .
فأمسك العصا بين كفيه وقبض عليها بقوة .

يتعذب إلى حد جعلنى أدرك مغزى « خلق
الموت والحياة » . أجل يا سيدى إن الموت
شئ يجب أن يخلق . فهز الطبيب كتفه
وقال بصوت لا يخو من العتاب : أحدثنى
عن الموت ؟ أحدث عنه طبيباً والموت هو
المحور الذى تدور حوله أعمال كل طبيب ؟!
فقلت : عفوا ، بل قصدت أنه نعمة بالنسبة
لذلك النجار

لم يتكلم منذ دخل المستشفى بكلام مفيد
بل كان يخلط فلم يفهم عنه جيرانه شيئاً .
وها هو ذا فى فراشه اليوم يحيط به « رافان »
ابعدله عن بقية الحجرة حيث الحياة مرجوه
والشفاء مرتقب . وكان لا بد للنجار أن
يدخل هذا المستشفى لأنه كثيراً ما ضاق
بالوجود فاستعان بمصاه وخرجها ثماً على وجهه
حتى إذا ما استقبل القضاء وأحس حلاه
الحقول رفع عقيرته صائحاً بعلء حريته
منادياً ولده فلا يرد عليه إلا الصدى

كان يفعل ذلك من حين إلى حين حتى
تردى ذات يوم فى حفرة عميقة على جانب
الطريق وعلى رأس مزرعة . حول أحد
الفلاحين طينها إلى لبن استعمله فى البناء
ثم تركها ترتدم رويداً رويداً كلما شاء أن
يلقى فى جوفها شئ

واستقر فى أعماقها النجار وأصابه منها
بأصابه . ثم انتشاه وعلى وجهه دم وطنين